Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 26:1-2 (1991

أزمة الثقافة فى المجتمع الاسلامى فى منظـور ابن رشد

محفوظ السماتى

الازمة هى حالة توتر و فقدان توازن ، تصيب المجتمعات المريضة المهددة بالتفكك، فتزعزع رواسيها وتبث فى صفوفها الحيرة والقلق .

واذا كانت الازمة الاقتصادية رغم ما ينجر عنها من فقر و زوال نعمة عابرة، لاتترك آثارا حادة فى النفوس فان الازمة الثقافية أشد وطأة على المجتمع، تتغلغل فى أعماقة ببطء ودهاء، دون اثارة أى انتباه حتى يشتد ساعدها ويقوى رصيدها ويكثر أنصارها فتسفر عن تيارات فكرية متعارضة و أحيانا متناحرة فتنتشر البلبلـة وتختفى الوحدة الجامعة التى كان مندمجا تحت لوائها أغلبية أفراد المجتمع فينقسمون فرقا و شيعا . وفى هذا التشتت هلاك الامة كما بيّنه الامام الغزالى بقوله :

,,ان اختلاف الخلق فى الاديان والملل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الاكثرون وما نجى منه الا الاقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجى وكل بما لديهم فرحون وهو الذى وعدنا به سيد المرسلين صلوات الله عليه وهو الصادق الصدوق

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

حيث قال : ,,ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة،، ، فقد كادما وعد أن يكون (١) .

فالاختلاف كما أكده حجة الاسلام، جبلة فى البشر وهو ظاهرة شاملة ليس على مستوى الاديان فحسب بل حتى داخل الملة الواحدة.

ودون أن يتعمق فى أسباب هذا التباين بين أبناء الدين الواحد اكتفى بالاستشهاد بالحديث الذى كشف به الرسول ـ ص ـ لصحابته عن وضع أمته فى المستقبل .

فكأن الحديث أصبح سندا لكل من سولت له نفسه انشاء مذهب أو فرقة يعارض به من سبقه فى هذا الميدان ، معتقدا أو متظاهرا بالاعتقاد بأنه هو الناجى لانه على طريق الصواب وغيره فى ضلال مبين . والاختلاف فى الافكار لا حد له و الأهواء لا نهاية لها كذلك . وهذا التنافس المستمر اضر بوحدة المجتمع فيقسمه الى فئات كلها تدعى الزعامة ولو على حساب الصالح العام .

والغزالى لا يحاول أن يشرح لنا بالتفصيل العلل الحقيقية التى جعلت المجتمع مغلوبا على أمره يتسامح مع من يتجاسر المساس على مقوماته الدينية و الثقافية . فيتركنا نتسائل هل الحديث المذكور لم يجعل انقسام الأمة الى اتجاهات وتيارات مختلفة ، أمرا محتوما لا مفر منه ؟

ونطرح نفس السؤال على ابن رشد لعله يقنعنا بآرائه وتحاليله؟ ان مشكلة الاختلاف بين المسلمين لم تبق على المستوى الفكرى بل تجاوزته الى نزاع خطير أسال الوباء واستباح المحرمات وأقام حواجز بين أبناء الاسلام . أين يكمن ياترىٰ هذا الوباء الذى عجز عن علاجه الحكماء ؟ هل ثقافتنا تشكل حقلا صالحا لصراع عنيف لا يترك للمجتمع راحة بال ؟ فكأن صورتها تتمثل فى شخص السند باد البحرى

ذلک الرجل الذى لم يشعر بالطمأنينة الا فى مشقة الأسفار و مقاساة الاهوال . فكذلک المجتمع الاسلامى لم يتمتع طويلا بالهدوء وجمع الشمل حتى دخل فى اضطراب تنافرت فيه عناصره وانقسمت أجزاءه . ولخص أبوالوليد بن رشد هذا الوضع فقال : ,, ان الناس قد اضطربوا فى هذا المعنى كل الاضطراب فى هذه الشريعة حتى حدثت فرق ضالة و أصناف مختلفة، كل واحد منهم يرى أنه على الشريعة الاولى و أن من خالفه اما مبتدع واما كافر مستباح الدم والمال . هذا كله عدول عن مقصد الشارع و سببه ما عرض لهم من الضلال عن فهم مقاصد الشريعة،،(٢) .

يقدم ابن رشد فى هذا النص صورة كاشفة عن حالة الثقافة والمثقفين فى المجتمع الاسلامى ، تعبر عن انحراف فى العقيدة و ابتعاد عن الشريعة واتباع أهواء وعجز عن القيام باصلاح ذات البين مما أوقع الامة تحت سيطرة الجهل والغرور تركاها تتخبط فى العداوة والبغضاء والمشاجرة من أجل أفكار مزيفة . هذه الانقسامات الاجتماعية رغم ظاهرها الثقافى والفكرى فانها تخفى جذور ا طبيعية هى السبب الأساسى فى توزيع الافراد على منازل تنسجم مع استعداداتهم الفطرية لتقبل نموذج معين من الثقافة وليس غيره . فاذا حاولنا استبداله بنموذج آخر يتخلل النظام الطبيعى ويفتح الباب للمنافسة الهدامة التى تنطلق من أفكار بسيطة يطمح بها صاحبها الى نيل المعالى ، فيظلم الثقافة ويدخل معركة هو عاجز عن خوضها . ونتيجة هذا السلوک العشوائى هو الاضطراب الذى يضرم النار بين الفرق المتناحره .

يرى ابن رشد أن جبلة الفرد هى التى تحدد نصيبه : ,, من التصديق ، وذلک أن طباع الناس متفاضلة فى التصديق فمنهم من

يصدق بالبرهان ومنهم من يصدق بالاقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان اذ ليس فى طباعه أكثر من ذلک ، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالاقاويل البرهانية»(٣) .

فالناس اذن ينقسمون طبائعهم الى ثلاثة أصناف :

١ ـ برهانيون لا يصدقون الا بالبرهان ؛

٢ ـ جدليون يصدقون بالاقاويل الجدلية ؛

٣ ـ خطابيون يقتنعون بالأقاويل الخطابية .

يستخرج فيلسوف قرطبة هذا التصنيف من الآية الكريمة : ,, **أدع الى سبيل ربّک بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتى هى أحسن** ،،(٤) .

فمصدر فيلسوفنا هو القرآن العظيم وليس كما يعتقد الاستاذ يحيى هويدى (٥) أنه أخذه من ,,أعز ما يطلب ،، لابن تومرت ، فلو كان كذلک لأشار اليه لاسيما وأن الرجل هو مؤسس الدولة الموحدية التى عاش ابن رشد فى أكنافها .

ولم ينقله أيضا عن أرسطا ليس كما يتهمه جوتى (٦) فى مقدمته لترجمة فصل المقال . فمن عادة الشارح كما يسميه الاوروبيون، الفصل بين كلامه و كلام المعلم الاول .

فالانطلاقة اذن كانت قرآنية وقد استنبط ابن رشد هذا الترتيب الاجتماعى من تأويله للآية المذكورة .

المرتبة الاولى يحتلها العلماء الذين يستخدمون العقل فى فهم جميع الظواهر الدينية والدنيوية، فقد استطاعوا بفكرهم السليم أن يحللوا القضايا تحليلا متماشيا مع البرهان الذى يخضع لسلطانه كل عاقل منقاد للأدلة البرهانية . وهذا الصنف كما يقول ابن رشد : ,, هم من أهل التأويل اليقينى و هؤلاء هم البرهانييون بالطبع والصناعة أعنى

صناعة الحكمة وهذا التأويل ليس ينبغى أن يصرح به لأهل الجدل فضلا عن الجمهور »(٧) .

فالعلماء جماعة خاصة اقتنت الحكمة بفضل المجهودات التى بذلتها فى سبيلها ثم بفضل تفوقها الفطرى ، فهى نخبة تمتاز بموهبة تحث صاحبها على السعى وراء العلم اليقينى والبحث عنه واكتسابه مهما يكبده ذلك من مشاق لأن الاستعداد الفطرى غير كاف للحصول على الحكمة .

فالقاعدة المعتمدة هو ما يقوم به الباحث من جهد و ما يقدمه من تضحية حتى يلتحق بصفوف الحكماء ويهتدى الى سبيل الرشاد ، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم : ,, **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا** »(٨) .

فالعمل هو الشرط الاول اذن للوصول الى درجة المعرفة و كذلك العبقرية ، كما يقول المثل ، كلها اكتساب ماعدا جزء ضئيل يعتبر لدينا » .

وعندما يتم تحصيل العلم تبدأ مسؤولية العلماء الاجتماعية، فهم مطالبون بنشر علمهم بأمانة ولمن هو أهل له فاذا وضعوه فى غير محله فانهم يظلمون ويسيئون الى المجتمع حيث يدخلونه فى حيرة وشغب .

وتسند الامانة العلمية لأهل البرهان لأنهم أصحاب التأويل وتفسيرهم للآيات القرآنية والاحاديث الشريفة يكون دائما مبنيا على معرفة وعلى منطق لايتعارضان مع قصد الشريعة . و أهل الحكمة مفضلون على غيرهم فى هذا المجال لأن الله تعالى أشركهم فى فهم معانى القرآن وتأويله فقال : ,, **وما يعلم تأويله الا الله والرّاسخون فى العلم** »(٩) .

يعتبر ابن رشد ,,الراسخين فى العلم » العلماء الذين لايصدقون الا بالبرهان و الذين أدركوا ظاهر الآية ونفذوا الى باطنها دون أن

يخلطوا بين المعنيين فكانوا من أبرع المربين ، يعلمون الناس حسب استعداداتهم لتلقى العلم فكانوا على منهج الامام على حيث يوصى المعلم بالاهتمام بمستوى المتعلم فيقول : ,, حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله،،(١٠) .

حفاظا على السلم الاجتماعى و رفقا بالمبتدئين لا ينشر العلماء ثقافتهم فى الاوساط التعليمية الا بمقدار وحسب مقتضى الحال . ومن الضرورى أن تبقى العامة بعيدة عن المناظرات العلمية والفلسفية حتى لا يتسرب الشك الى عقيدتها البسيطة فى المفاهيم العميقة فى النفوس . والمستوى العقائدى والثقافى هو الذى يتحكم فى البنية الاجتماعية لاسيما فى المجتمع الاسلامى ، لذا يجب الاعتناء به حتى لاتشوبه عناصر أجنبية تسلبة رونقه الخالص .

لكن أهل الحكمة ,,كالنوابت ،، حسب تعبير ابن باجة ويعنى بذلك أنهم غرباء فى مجتمعهم، مثل النبات الاجنبى عن الزرع رغم أنه موجود معه فى الحقل لكن دون تجانس ولا انسجام . كذلك الفيلسوف فهو معزول عن مجتمعه ، لا يجد الا نادرا من يتجاوب معه و يتبنى أفكاره .

والوسط الاجتماعى الذى يقصى مفكريه البرهانيين ويرفض تعليمهم، ينحرف عن طريق الحقيقة ويسلك طريق التقليد والجمود ويتوقف عن فهم الظواهر الاجتماعية والثقافية والطبيعية فهما صحيحا مبنيا على البحث والتروى مدعما بآراء الاوائل السليمة من بنى الملة وغيرهم حتى تتسنى عملية التكديس الثقافى والفكرى التى تفتح باب التقدم العلمى . فلا يحتاج الباحث الى اعادة النظر فى القضايا التى تم الفصل فيها وفى هذا يقول ابن رشد : ,, ان هذا الغرض انما يتم لنا فى الموجودات بتداول الفحص عنها واحدا بعد واحد و أن يستعين فى

ذلک المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض فى علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة فى وقتنا هذا معدومة و كذلک صناعة علم الهيئة وراح انسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرک مقادير الاجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلک ... والفقه نفسه لم يكمل النظر فيه الا فى زمن طويل ، ولو راح انسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التى استنبطها النظار من أهل المذهب فى مسائل الخلاف التى وضعت المناظرة فيما بينهم فى معظم بلاد الاسلام ما عدا المغرب فكان أهلا أن يضحک منه لكون ذلک ممتنعا،،(١١) .

ان الرصيد العلمى ثروة للبشرية كلها، تنميها الاجيال المتعاقبة ولا فضل لأحد على الآخر الا بما يقدمه من خدمة للجميع، لكن الثقافات رغم تشابهها والاستقاء من بعضها بعضا فانها تبقى منفردة فى جوهرها معبرة عن خصوصياتها رافضة لبعض المقومات التى أسست عليها بعض المجتمعات ولا تنسجم مع مبادئ العقيدة مثلا ، وقد أشار ابو الوليد الى هذا الجانب الذى يشكل الاختلاف بين الثقافات بقوله : ,, فقد ينبغى أن نضرب بأيدينا الى كتبهم (كتب القدماء) فننظر فيما قالوه من ذلک فان كان كله صوابا قبلناه منهم وان كان ليس بصواب نبهنا عليه ،،(١٢) .

ان الاقتباس من ثقافة الغير لا يكون الا نتيجة تمحيص وليس عملية محاكاة دون استعمال مقاييس، فالمقياس بأيدينا تشكله عقولنا وعقيدتنا ، يعطينا وجه الصواب ووجه الاختلاف والتباين كلما اعترضتنا مشكلة مع ثقافة غربية عنا والمعروف أن كل ثقافة تتشابه مع جميع الثقافات ولا تتشابه الا مع بعض الثقافات ولا تشابه أية ثقافة أخرى .

ومن صفات المجتمع الذى كملت وحدته و اندمجت أجزاءه ، الانفتاح على المجتمعات الاخرى ، يتبادل معها الأشياء المادية والظواهر الثقافية و الافكار العلمية دون أن تذوب شخصيته فى أى

مجال من المجالات يعبر عن قدرته على الخوض فى معركة الحضارة الانسانية بالأخذ والعطاء والتأثير فى الغير والتأثـر بهم . فاذا انطوى على نفسه فان حركيته تكون بطيئة ولا يجد فى ذاته الدوافع القوية لتحقيق التغيير . لاتربطه بما حوله روابط تجره نحو وضعية أفضـل فيستسلم لسلطان السكون وسلطة أهل الجدل المنكبين على مسائل ثانوية لا توفر الغذاء الفكرى ولا البدنى وانما تلبس المجتمـع ثوب النزاع والشقاق . انها المحنة التى أصابت الامة الاسلامية فأماتـت خلاياها الحية وتركتها تتخبط فى مشاكل عقائدية مفتعلة لا زالت تعانى من ويلاتها الى اليوم، وموقدو نار الفتنة لم يضعوا السلاح ولم تتغير سلوكاتهم . لقد زجوا بالمجتمـع فى مأزق ما زاده الا حيرة وتمزقا . فهذا السرطان الذى ما انفك يفتت جسد الامة انتشر الآن بقوة فتاكة و تغلغل فى الاعضاء فوجد المجال صالحا ، جهل مركب و تخلف مقذع وقادة فكر أقزام .

واذا كان الصراع بين الفرق الاسلامية فى الماضى قائما على آراء ابتكرتها عقول نيرة تدل على نضجها وكفاءتها وعمقها فان الاختلاف فى عصرنا يسوده الغرور والسخافة والعنف فيخط المجتمع الى مستوى رديئ تفككت فيه بنيته وفسدت أخلاقه وتلاشت ثقافته حتى قال أحد الحكماء : ,, لقد كثر العلماء وعم الجهل ....،،

فهذا المرض العضال ترجع جذوره حسب بعض الاراء الى عقلية الجنس السامى الـذى يبـدو عاجـزا عن الغـوص فى بحـر العقـل لاستخراج جواهره . فالعقل بالمفهوم اليونانـى ليس من ميزات الثقافة السامية ولاسيما الاسلامية كما يعتقدون . وهذا رأى أرنست رينان الذى يزعم : ,, ان هذا الجنس السامى يظهر فى كل مقوم من مقوماته غير كامل ، وذلك لبساطته ،، . ويضيف فى فقرة أخرى : ,, ان أهم عمل

للساميين هو أنهم تمكنوا من تبسيط الفكر والعقلية البشرية وتخلصوا من التعدد والتنوع والتعقيد الذى كان يهيم فيه تفكير الاوروبيين الدينى ،، (١٣) .

تفوق الساميون اذن فى الفكر الدينى على غيرهم فتوصلوا الى فكرة التوحيد التى استعصت على الامم الاخرى ، لكنهم بقوا بعيدين عن العقل الوضعى الذى انتجه الاغريق وامتازوا بصفاته . ويحاول رينان أن يثبت هذا من خلال مقارنته للفلسفة اليونانية بالفلسفة الاسلامية ، فيجزم دون تردد : ,, فترانى أصر على اعتقادى أنه لم يسيطر على ايجاد هذه الفلسفة (الاسلامية) أية فرقة كبيرة من فرق العقائد وذلک أن العرب لم يصنعوا غير انتحال لمجموع الموسوعة اليونانية كما عول عليها العالم بأسره حوالى القرن السابع والثامن ... وذلک أن الفلسفة العربية تعد مثالا وحيدا لثقافة بالغة السمو حذفت بغتة من غير أن تترک آثارا ونسيت تقريبا من قبل الامة التى أبدعتها وفى هذا الحال يكون الاسلام قد كشف عن ما هو ملازم لعبقريته لزوما عضالا، وكذلک كانت النصرانية قليلة الملائمة لنشوء العلم الوضعى فوقفت لتعطيل هذا العلم فى اسبانيا وعوقه فى ايطاليا كثيرا ولكن من غير اطفاء له فانتهت حتى أعلى فروع الاسرة النصرانية الى اصلاح ما بينها وبينه و اذ لم يستطع الاسلام أن يتحول وينتحل أى عنصر من الحياة المدنية والعلمانية فقد نزع من جوفه كل أصل من الثقافة العقلية،،(١٤) .

ان التناقض بين أفكار هذا الفيلسوف واضحة فهو يعتبر الساميين بازدراء رواد الفكرة التوحيدية مع أنه يعلم أن الوصول الى الاقتناع بوجود الله واحد يسير هذا العالم ليس من الامر الهين . انه يتطلب جهدا يبذله عقل باحث عن الحقيقة لتطمئن بها القلوب. ولقد ذاق

مرارة تلك التجربة ابراهيم عليه السلام عندما كان ذاهبا الى ربه . ويصف القـرآن منهجية الخليـل فى صورة علمية رائعة فيقـول :

,,وكذلک نرى ابراهيم ملكوت السّمٰوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليه الليل رأىٰ كوكبا قال هذا ربّى فلمّا أفل قال لا أحبّ الآفلين فلمّا رأى القمر بازغا قال هذا ربّى فلمّا أفل قال لئن لم يهدنى ربّى لأكوننّ من القوم الضّآلّين فلمّا رأى الشّمس بازغة قال هذا ربّى هذا أكبر فلمّا أفلت قال ياقوم انى برىٓ ء مما تشركون، انّى وجّهت وجهى للّذى فطر السّمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ،، (١٥) .

و دون أن نحاول تفسير هذه الآيات أو تأويلها ، فاننا نلاحظ أن استخدام المنطق هو الذى جعل الخليل ينتقل من منزلة أدنى الى منزلة أعلى أو من موقف الى موقف أفضل كما تقول الصوفية . فالمسيرة كانت طويلة وشاقة ولم تكن عملية تصديق تلقائى دون ملاحظة ورؤية . الا أن رينان يهمل هذا الجانب الهام فى طريقة البحث العلمى ويواصل استخفافه بها فيبقى يتلاعب بالالفاظ جاعلا الثقافة الاسلامية بيـن نقيضين، تارة يشيد بها فيصفها بأنها ,,بالغة السمو،، ثم ينزل بها الى الحضيض فينسب اليها السلبية حيث أنها عديمة الاستقرار و أن الذين ابتدعوها هم أولى من تفكر لها ونسيها . فهذا الهجوم القائم علـى كليشيات هو الذى لازال يردده بعض المغرضين عندما ينسبون تخلف العالم العربى الى الاسلام .

التطرف فى الحكم هو الذى جعل علماء المسلمين غير متكاملين فى آرائهم يكفر بعضهم بعضا، كل يدعو الى طرد خصمه من المجتمع وفصله عن الثقافة والدين للقضاء عليه نهائيا فليست هناک محـاولة للتروى فى أفكار الغير والتماس العذر لمن يستحقه، وقليل من العلماء

الذين ينتهجون الموضوعية فى انتقاداتهم مقتدين بالامام الغزالى . فانه رغم ما يبديه من استخفاف بالفلاسفة لا يتسرع فى الحكم عليهم، بل يتفق معهم فى بعض الافكار و يختلف معهم فى أخرى فيفصح عن عدم موافقته لهم فى موضوع الالهيات مثلا فيقول : ,, ولقد قرب مذهب أريسطوطاليس فيها من مذهب الاسلاميين على ما نقله الفارابى وابن سيناء ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها وتبديعهم فى سبعة عشر ،،(١٦) .

يحاول أبو حامد أن يتحرى النزاهة العلمية فيقسم الاغلاط الى درجات ولا يحاسب أصحابها الا على قدر انحرافهم عن الكتاب والسنة، فاعتناق الكفر غير ابتداع البدع ولذا يتفادى حجة الاسلام الخلط بينهما. لكن رغم هذا الورع الذى يتجلى فى دراسته للفلسفة فانه يعلن صراحة كفر خصومه وهذا يعنى أنه يفصل فئة من النخبة عن الأمة فلا يبقى من يقتدى بها ويتأثر بتعاليمها و أكثر من ذلك يؤدى هذا الموقف المعادى ,,للحكمة،، الى غضب العامة و حثها على القيام بالعنف ضد من يتبع القدماء ويدرس كتبهم ، وتزيد السلطة السياسية هذا السلوك المتهور ارضاء للكافة العمياء مستغلة جهلها وعاطفتها الدينية .

ويصف لنا المقرى حال الاندلسيين وتقلبهم فى البيئة العلمية والثقافية فيقول : ,,وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم، فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة فانه كلما قيل ,,فلان يقرأ الفلسفة،، أو ,,يشتغل بالتنجيم ،، أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه،، (١٧) .

وهذا ما كان يندد به ابن رشد ، يناشد العلماء أن يحتفظوا بعلمهم وأن لا يلقنوه الا لمن هو أهل له حتى لا يصبح مرميا فى

الشارع تتلاعب به أيدى المشاغبين من أهل الجدل، تلك الطائفة التى تحتل مكان الوسط بين أهل البرهان و أهل الخطابة أو العامة فانها تشكل خطرا على المجتمع . وينبه فيلسوف قرطبة أهل الحكمة الى وضع تأويلاتهم فى كتب خاصة لا يتصفحها من لم يبلغ منزلة العلم والمعرفة حتى لا يقع فى زلة أبى حامد ,, وان كان الرجل انما قصد خيرا و ذلك أنه رام أن يكثر أهل العلم بذلك ولكنه كثر بذلك الفساد بدون كثرة أهل العلم وتطوق بذلك قدم الى ثلب الحكمة وقدم الى ثلب الشريعة و قدم الى الجمع بينهما،،(١٨) .

ويضيف أبو الوليد الى ذلك صورة لتصرفات أهل الجدل وما انجر عنها من تعسف وفساد فى المجتمع سواء من حيث الشريعة أو الحكمة فيقول : ,, كما عرض ذلك لقوم من أهل زماننا فانا قد شاهدنا منهم أقواما ظنّوا أنهم تفلسفوا و أنهم قد أدركوا بحكمتهم العجيبة أشياء مخالفة للشرع من جميع الوجوه أعنى لا تقبل تأويلا وان الواجب هو التصريح بهذه الأشياء للجمهور فصاروا بتصريحاتهم للجمهور بتلك الاعتقادات الفاسدة سببا لهلاك الجمهور وهلاكهم فى الدنيا والآخرة،،(١٩) .

ان هذا الصنف من ,,المثقفين الاقزام،، هم الذين جنو على الثقافة الخالصة تطلعوا الى مجال العلم فلم يدركوا منه الا بصيصا و اعتقدوا أنهم أحاطوا به علما وذهب بهم الغرور حتى أصبحوا يبثون آرائهم الساذجة بين الجماهير فنشروا البلبلة فى صفوفها . وشنوا حملات شنيعة على الفلسفة فاتبعهم كل ناعق و أدخلوا الرعب فى قلب السلطان فاستجاب لمطالبهم فشكلوا قوة ضاغطة يخشاها أولوا الامر والجماعات . فاختلفت المعرفة فى هذا الجو القاتم وتشتت وحدة المجتمع وتنازع الناس فى قضايا لا تعنيهم وتشاتموا وتلاعنوا وانقسموا

حسب الاهواء . وذهب ضحية وضعية متفجرة كهذه الخطابيون وهم السواد الاعظم من الامة . كانت عقيدتهم خالية من كل شك فزعزهتها الاراء المتضاربة التى تؤول بكل جرأة المسائل الشرعية دون أن تتحكم فى قواعد التأويل . ويحمّل ابن رشد الاشعرية والمعتزلة مسؤولية تفكك المجتمع انطلاقا من العقيدة فيقول : ,,ان تأويلاتهم لا تقبل النصرة ولا تتضمن التنبيه عل الحق ولا هى حق، ولهذا كثرت البدع،،(٢٠) .

والفتنة يوقد نارها أهل الجدل، يضربون حصارا على أهل الحكمة وعندما يخلو لهم الجو، يستغلون سذاجة العامة فيجرونها وراءهم فى طرق خلافاتهم ويفسدون عليها ايمانها وتقاليدها ويقتسمونها فئات تتعصب كل واحدة منها لمذهب فى صراع مع المذاهب الاخرى، هذا التمزق الاجتماعى أصله اختلاف أفكار و آراء بسيطة أدت الى نزاع ثقافى كان سبب أزمة شلت حركية المجتمع وألقته فى قيود لا زال لم يتحرر منها .

ان الكافة كما يسميها ابن خلدون لا يخشى بأسها اذا لم تحركها أيادى مغرضة تعرف كيف تضرب على الوتيرة الحساسة، وتيرة الدين فيهيج الخطابيون تحت تأثيرها مضرمين النار فى انتاج العقل البشرى ولا تخمد ثائرتهم حتى تفرغ الساحة من كل من يدعى الفلسفة . من يستطيع الوفاق بين أفكار متضاربة يعتز أصحابها بالانتصار و يفتخرون بها معتقدين أن الحقيقة تنعكس من خلال آرائهم ؟ ان الاستعداد بالنفس يدفع أحيانا الى الاستبداد بالرأى وعدم الاكتراث بالغير و به تكون القطيعة الكاملة بين الافراد و الجماعات . تعرض المستشرق آدم ميتز لهذا الجانب فقال : ,, ان المعتزلة كانوا متكاتفين حتى أن تكاتفهم فى القرن الرابع كان مضرب المثل وحتى تمثل الخوارزمى باعتداد

المقتزلى بالمعتزلى وكان المتكلمون ينظـرون فى كل شىء و أرادوا معرفة كل شىء . وكان من يسمون بالفلاسفة ينظرون اليهـم بعيـن التصغير كما ينظر الباحث فى علم النفس التجريبى الى صاحب ما بعد الطبيعة وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليل وانهم انفتح باب الحيرة عليهم وسد باب اليقين عنهم ، ولهـذا قل تألههم وتنزههم وصاروا يقولون بتكافؤ الادلة،، (٢١) .

ان الفجوة بين الفرقتين تبدو شاسعة ولم يحاول أى منهما أن يقترب من الآخر رغبة فى التعاون والوئام و ازالة الاحكام المسبقة . وتاريخ الفرق الاسلامية مفعم بالأحداث الاليمة التى لازالت الاذان تسمع صداها . لقد أقام هذا التاريخ العنيف حواجز فصلت الفئات المثقفة عن بعضها وتركت الصراع متواصلا بينها فانطفى مشعل الحضارة بوأد الفلسفة و الاشتغال بقضايا هامشية كتكفير بعض الاعلام والشك فى ايمان بعض المفكرين . فتعطل الابداع وتوقف الانتاج العلمى والثقافى واستحال التكامل وعمت الحيرة المجتمع فلم يجد مرشدا يأخذ بيده فانساق فى طريق التخلف .

كان المرحوم محمود قاسم يعتقد أن الاهتمام بالثقافات الاخرى هو الذى كان سبب اختلاف المسلمين وانحرافهم ، فقال : ,, وفى رأينا أنه كان أولى بالمسلمين جميعا متكلمين وغير متكلمين أن يتدبروا آيات الكتاب لكى يستنبطوا منها أدلتهم بدلا من أن يعمدوا الى نظريـات فلسفية ظنية وخصوصا اذا كانت نظريات من الدرجة الثانية والثـالثة كنظرية الجوهر الفرد،،(٢٢) .

لقد سلم بهذا الرأى بأن الفلسفة اليونانية لم يستصغهـا الفـكر الاسلامى ولم تدمج فى الثقافة الاسلامية فخلقـت مشـاكل فلسـفية تتعارض مع الروح القرآنى . لا ندرى ماذا كان يقصد هذا الاستـاذ

عندما عاب على المسلمين الاشتغال بالفلسفة الافريقية؟ هل كان يعتبر العقل اليونانى يتميز بميزات لا تبرز فى غيره وان الاشتغال بانتاجه مفسدة للفكر الاسلامى؟ مهما كانت نيته ، فان البحث فى الثقافات الاجنبية ضرورى لانه يساعدنا على توسيع أفكارنا وتصحيح الأخطاء فى تجربتنـاواقتصار الوقت فى القضايا التى وجدت حلولها . ورأى ابن رشد كما ذكرنا آنفا يدعو الى الاطـلاع علـى ما تركه الاوائـل من مسلمين وغيرهم .

ان أزمتنا الحالية سليلة الازمة الثقافية التى عاشها آباؤنا مع الفرق أنهم واجهوا تحدى الثقافة اليونانية والفارسية وغيرهما بشجاعة وثقة بالنفس واعتزاز بالعقيدة الاسلامية .

فقد دافعوا عن الاسلام بأفكار بناءة وأثبتوا كفائتهم فى البحث والمناظرة وشيـدوا نظريـات فلسـفية وعلمية أقحمـوا بهـا الخصـوم المعاندين وأنشؤا حضارة أصبحت نموذج فى العالم . وبعبارة وجيزة لقد كانوا عمـالقة الفـكر، أبدعـوا فى كل المجـالات العلمية والثقـافية المعروفة فى زمنهم . أخذوا من الغير وأضافوا الكثير الى اقتباسهم وصبغوه بصبغتهم فكان انتاجا اسلاميـا خالصـا . لكن الخلف تنـكر للسلف ، فلم يحافظ على التركة الثقافية الطائلة التى ورثها ، لقد أودعا الخزانات و أعرض عنها ونسيها فلم يدرسها ولم يستبدلها بأحسن منها.

يعيش حياة تقليد مملة وعصرية ملفقة ويتقلب بين الطرفيـن لا يدرى أين الاتجاه السليم . عقله عقيم وفكره سخيف ، عالة على الغير فى غذائه ولباسه وعلاجه وثقافته، مستسلما لنفوذ الاجنبى عاجزا عن ابداء رأيه واعطاء كلمته وابراز شخصيته .

هناك تيارات أربعة تتنازع بينها دون أن يجر واحد منها الآخر

نحو مشروع اجتماعى موحد ، يلخصها الاستاذ عبدالله العروى (٢٣) . كمايلى :

١ ـ يتزعم أولها المصلح الدينى الذى يريد تغيير المجتمع انطلاقا من الدين الذى يعتبره العنصر الأساسى فى حياة المسلمين الاجتماعية. فاذا أزيل منه البدع التى كسته وعدنا به الى نقاوة عقيدة السلف الصالح نسترجع مجدنا ونلحق بالركب الحضارى .

٢ ـ ويعترض هذه الفكرة رجل السياسة فيقترح أفكار علمانية تترك الدين وشأنه وتهتم بقضايا سياسية كالديمقراطية والحرية والمساواة والدستور والبرلمان والمواطنة وحقوق الانسان يريد تجسيد هذه المفاهيم فى الواقع معتقدا أنها شرط كل تقدم فى المجتمع وبدونها كل محاولة تفشل لا مجالة .

٣ ـ أما التقنوقراطى فيسخر من كل هذه الآراء ,,الوهمية،، التى لا صلة لها بالواقع المحسوس فيجزم أن معالجة الوضعية الاجتماعية تكمن فى السيطرة على المادة . فمادمنا نجهل التقنيات البسيطة لايمكن أن نطمح الى تغير اجتماعى جذرى .

ونضيف نحن تيارا رابعا يتمثل فى رجل التقليد الذى يسعى بأن تبقى الظواهر بكاملها جامدة ، موهما أتباعه بأن الخير فى الاستقرار ومتمثلا بالمثل الشعبى ,, من دامت عادته دامت سعادته ،، .

هذه التيارات تارة تتصارع وأخرى تتسالم دون أن يهيمن أحدها على الآخر ويفرض سلطته وانتاجه الفكرى .

والحقيقة أن الاصلاح يبدأ باصلاح النفوس وتطهيرها من الرواسب الوخيمة التى طغت عليها فاذا حصل هذا فان المجتمع يخرج من التخلف الذى شوه وجهه، ولقد جربت الامة الاسلامية هذه التيارات جميعها فلم يلبّ واحد منها مطالبها فاتجهت الانظار بعد ليل طويل نحو المولود المبارك الاخير ، الا وهو الصحوة الاسلامية التى كانت تحمل آمال

الوحدة وجمع الشمل والقضاء على الاختلاف المفتعل الذى أشغل جذوة العداوة والبغضاء بين المسلمين ، لكننا نلاحظ وبكل حسرة أن الشباب المتعطش لاقرار وحدة الصف تاه فى قضايا هامشية سخيفة صرف فيها وقته ونسى الهدف المنشود الذى هو العمل الجماعى من أجل اعادة محاسن الاسلام للمجتمع الاسلامى .

واذا سلمنا بأن أزمة الامس هى أزمة اليوم فشتان بين الاجداد والاحفاد .

هـــوامش

١ ـ أبوا حامد الغزالى : المنقذ من الضلال ، دار الاندلس ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٧٨، ٧٩.

٢ ـ محمود قاسم : ابن رشد و فلسفته الدينية، مكتبة الانجلوا مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٧١.

٣ ـ ابن رشد : فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال . مطبعة كاربونال ، الجزائر ، ١٩٤٨ م ، ط ٣ ، ص ٨ .

٤ ـ النحـل ، الآية ١٢٥ .

٥ ـ يحيا هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٢٦٧ .

٦ ـ ابن رشد : فصل المقال المصدر السابق ، المقدمة ، ص ١١ .

٧ـ ابن رشد : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

٨ ـ العنكبوت ، الآية ٦٩ .

٩ ـ آل عمران ، الآية ٧ .

١٠ ـ ابن رشد : المصدر السابق .

١١ ـ ابن رشد : المرجع السابق ، ص ٥ .

١٢ ـ ابن رشد : المرجع السابق ، ص ٤ .

١٣ ـ على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ط ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦ .

١٤ ـ ارنست رينان: ابن رشد والرشدية ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص ١٠ ، ١١ .

١٥ ـ الانعام : الآية ٧٥ـ ٧٨.

١٦ ـ الغزالى : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

١٧ ـ المقرى : نفح الطيب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ج ١ ، ص ٢٢١ .

١٨ ـ ابن رشد : المرجع السابق ، ص ٢١ .
١٩ ـ ابن رشد : المرجع السابق ، ص ٢٧ .
٢٠ ـ ابن رشد : المرجع السابق ، ص ٢٧ .
٢١ ـ آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ترجمة محمد عبدالهادى ، أبو اريد ، دار الكتاب العربى ، بيروت، ١٩٦٧م، ج ١ ، ص ٣١٥ .
٢٢ ـ ابن رشد : مناهج الادلة فى عقائد الملة (المقدمة) ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨م ط ٣ ، ص ٤ .
٢٣ ـ عبدالله العروى:
L'ideologie arabe Contemporaine. Maspero, Paris, 1967

★★★